

البربر في جيش الخلافة الأموية في الأندلس 350-392هـ/961-1003م

أ/ بوخاري عمر، جامعة ابن خلدون- تيارت

مقدمة :

لم تجنح الخلافة الأموية في الأندلس فيعهد عبد الرحمن الناصر الى استجلاب البربر، الا بقدر ما كانت تحتاج إليه من مواجهة أعدائها.

فقد تبنى الخليفة الناصر سياسة التوجس و الحذر من هذه الفئة ، فقد اقتصر تجنيده على الغوغاء والإغفال من عامة البربر الذين ليس لهم من ملكات الالتئام والتمرد التي تسمح لهم بتهديد امن واستقرار الخلافة. ومع بداية المنتصف الثاني من القرن الرابع الهجري بدأت علامات الترهل تظهر في جيش الخلافة، فانبرى الحكم المستنصر إلى جبر التصدع وذلك بتطعيم الجيش بالعناصر البربرية التي ظل يملكها في بداية حكمه ، ثم تحول فجات إلى الاهتمام بها و التعويل عليها ، خاصة عندما بلغه حسن بلائهم واستبسالمهم في الحروب وخاض بهم دياجرة المواجهات.

وبمجئ الحاجب المنصور سار هو الآخر على نهجه حتى كاد أن يجعل من الجيش جيشا بربريا قضى به على الارستقراطية العربية ومنح الرواتب وقيادات الجيش للعناصر البربرية .

ولتجلية هذا الموضوع طرحنا الإشكاليات التالية : ما هي أوضاع هذه الفئة في جيش الخلافة في عهدي الحكم و المنصور ؟ وماهي انعكاسات تجنيد البربر في جيش الخلافة على مجتمع الأندلس؟

سياسة الحكم في اصطناع البربر:

عندما تولى الحكم المستنصر 350-366هـ/961-976م عرش أسلافه. لم يكن البربر قد اخترقوا جيش الخلافة. ولا حتى المناصب الحساسة في الدولة. بسبب سياسة التوجس والحذر التي تبناها والده عبد الرحمن الناصر 300-350هـ/912-961م، حيث اقتصر على تجنيد الغوغاء والأغفال. من عامة البربر الذين ليس لهم من ملكات الالتئام والتمرد. لتهديد أمن واستقرار الخلافة الأموية حيث يؤكد ذلك ابن حيان حين يقول: "لا يستخدم من البرابر إلا أزدالمهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم، موقعا عليهم اسم الطنجيين، مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم على أقل الرواتب، مصرفا لهم في أشق الخدمة"¹.

وليس هناك من تعليل -حسب ظني - لهذه السياسة إلا لكون عبد الرحمن الناصر كان لا يثق بالعناصر البربرية التي طالما شقت عصا الطاعة².

نظرا لما سبق ذكره، لم يجرؤ الحكم المستنصر على ابتداء سياسة جديدة تجاه البربر وظل حريصا - إلى حين - على عدم خرق القواعد التي أرساها والده واستمر على نفس السياسة سواء فيما يتعلق بالحدود الجغرافية للأندلس، أو بالنسبة لشؤون المنطقة الغربية من المغرب³ كما يؤكد ذلك ابن حيان حيث يقول: "وأنهى خلفه ابنه الخليفة الحكم في امتثال ذلك صدر دولته"⁴، ومما يدل على امتثال سياسة والده أنه سار ذات يوم بموكبه نحو الزهراء فوقعت عينه على غلام له يركب فرسا بسرج عدوي (مغربي) الصنعة فامتعض الحكم لذلك وأنكر ذلك على الغلام إنكارا شديدا وأمر بمعاقبة الغلام وإحراق السرج⁵.

ولم يطرأ أي تغيير على سياسة الحكم تجاه البربر إلى أن كانت الحرب مع بني محمد الحسينيين (الأدارسة) فرأى منهم ما أقر عينه.

يذهب أحد الباحثين إلى أن التغيير الذي طرأ على سياسة الحكم جاء عقب الحروب التي دارت رحاها بين جيش الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن كنون[□] وهو ما أورده ابن حيان^١. غير أنني أرى تواضعا، أن هذا التحول بدأ مع وصول البربر إلى المناصب الحساسة في دولة الحكم الإدارية منها والعسكرية كما كان لإشراف عثمان بن نصر[□] وهو من بربر بلنسية على تربية الحكم المستنصر[□] أثر كبير على هذا التحول حيث قام الحكم بتعيين جعفر بن عثمان المصحفي[□] وهو أبو الحسن - الوزير الحاجب المعروف بابن المصحفي كان والده عثمان بن نصر مؤدبا للأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر حتى توفيه سنة 325هـ / 936م و بعد وفاة أبيه قربه الحكم المستنصر إليه و عينه كاتباً له ثم ولاه الخليفة عبد الرحمن على كورة البيرة المرية ثم عزله عن البيرة التي تولاهها القائد محمد بن رماحس و اقر جعفر بن عثمان على البيرة فقط ثم ما لبث أن عزله عنها سنة 329هـ / 940م و في عام 333هـ / 944م ولاه عبد الرحمن الناصر قائدا على الجزائر الشرقية فلما توفيه عبد الرحمن الناصر و خلفه ابنه الحكم المستنصر استوزر جعفر بن عثمان المصحفي و كان جعفر من أهل العلم و الأدب البارع و له إسهامات شعرية رائعة تدل على حسن طبعه و سمعة أدبه منها: و لما قوي عضد المنصور و قوي بصبح حرم الحكم نكب بجعفر و مات في تلك النكبة[□] سنة 366هـ / 976م.

كما أن هناك عامل آخر لا يمكن إغفاله، وهو الانتصار الذي أحرزه أبو علي جعفر بن علي بن أحمد

مجازاة نفسي لأنفاسها

أجاري الزمان على حاله

توارت به دون جلاسها

إذا نفس صاعد شقها

ن عكفت بصدري على رأسها

وإن عكفت نكبة للزما

بن حمدان الأندلسي ويحي أخوه على قوات زيري بن مناد الصنهاجي حيث دارت بين الفريقين معركة ضارية في رمضان 360هـ / 970م عند وادي ملوية على مشارف المغرب الأقصى انتهت بهزيمة صنهاجة وقتل زيري ومعظم رجاله واستيلاء الزناتيين على معسكره^{□□} كما سأبين ذلك لاحقا.

وأيا ما كان الأمر فإن البربر قد تبوؤوا مكانة محترمة لدى الحكم المستنصر حيث يقول ابن حيان: "وسبق جعفر ويحي أخيه وذويهما بالعبور إلى أرض الأندلس مهديين رأس زيري خالعين للدعوة الشيعية متقلدين للدعوة الأموية الجماعية وما جرى لهما لدى الحكم من قبول ورفعة"[□].

صحيح أن الحروب التي اشتعلت بين جيش الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن كنون، كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير لكن تغيير موقف الحكم لم يتم بهذه الفجائية التي أشار إليها عبد القادر بوباية. لقد تسنى للحكم أن يقف على شدة مراس البربر وقوة شكيمتهم وهو ما يؤكد ابن حيان: "فلاقي من صدق مراس رجالهم وش بأسهم على قلة عددهم ما ملأوا به عباب سيله ومارسوا برعالمهم"[□] ألقاف كراديسه فصابروا جلادهم وقاوموا قراعهم وأبروا في بعض المواطن عليهم حتى لقتلوا ابن طلمس القائد الجليل أول ناهد بالجيوش إليهم في طائفة من حماة الجند، أشجوا فيه الخليفة الحكم وحرّقوه"[□].

ومهما يكن من أمر فإن الحكم المستنصر أدرك بحصافة عقله وبعد نظره أن علاقته بالمغاربة متوقفة طرا على نوع العلاقات بين المغاربة والفاطميين وأصبح الشغل الشاغل لديه هو درء خطر الفاطميين بشتى الوسائل ^{□□} غير أن هذه السياسة سرعان ما اصطدمت بمصالح أمراء الأدارسة الذين ظلوا مصممين على استعادة ملكهم الغابر في هذه النواحي الشمالية من المغرب ^{□□}.

وعندما اكتسحت قوات بلكين ابن زيري بن مناد ^{□□} بلاد المغرب وهيمنة على أهم المراكز، كان الحسن ابن كنون أول من سارع إلى بيعته ^{□□} وهو ما أشار إليه ابن الخطيب حين يقول: "واتصلت مشايعته - أي الحسن بن كنون - للمروانية وتمسك بدعوتهم إلى أن ولى أمر إفريقية بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي فتحرك إلى المغرب حركته الشهيرة التي استأصل فيها ملوك زناتة وقطع دعوة بني أمية من المغرب وقتل أولياءهم وأخذ البيعة لمعد بن إسماعيل كما فعل جوهر قبله وكان الحسن بن كنون هذا أول من سارع إلى بيعته الشيعة ونصرة بلكين ^{□□}".

وعلى عجل بادر الحكم بتعبئة الجيش لغزو بلاد المغرب وقتال الثائر الحسن بن كنون، وأوكل قيادة الجيش للقائد محمد بن القاسم بن طلمس ^{لج} وزوده بتعليماته وأوصاه أن يستعين بمن دخل في طاعة الأمويين من البربر ^{□□} واندفع جيش الخلافة نحو تطوان ^ب فألفاها خالية ومنه إلى مدينة طنجة ^ب ولما أحس الحسن بن كنون بشدة الحصار، فر هاربا في ثلة من أصحابه ^ب.

وفي تلك الأثناء استطاع الحسن بن كنون جمع قواته مرة أخرى حيث أعاد تنظيمها والتقى بجيش الحكم في ربيع الأول سنة 362هـ/972م في مكان يعرف بفحص مهران وكان النصر من نصيب الحسن بن كنون وانهزمت القوات الأندلسية وقتل منهم عدد كبير وعلى رأسهم القائد الأندلسي محمد بن القاسم بن طلمس ^{سه}.

لقد كان لسقوط هذا الأخير في ميدان المعركة أثر عميق على نفسية الحكم بلا ريب ^{□□} ولكن في نفس الوقت أكبر من شأن البربر واعترف بيأسهم وهم الذين رغم قلة عددهم وعدتهم تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيش الأموي وهو ما يذكره ابن حيان حين يقول: "ووافته على ذلك شارة رجال هؤلاء الحسنين في غلمانهم وصناعاتهم المرغبين لهم وله بإذعانهم للذي سبق لهم لديه من الاغتصاص بمرارتهم والاعتراف بيأسهم" ^ب.

وظل الحكم حريصا على استمالة البربر حتى حين قام بتشجيع غالب مولاه وصاحب حروبه حين أنجد به جيشه المهزوم ببلاد المغرب حيث أوصاه بالاستماتة في مقاتلة الرؤوس والإحسان إلى من أذعن من القبائل البربرية وقال له: "يا غالب سر سير من لا إذن له في الرجوع إلا حيا منصورا، أو ميتا معذورا، ولا تشج بالمال وأبسط يدك به يتبعك الناس" ^{□□}.

هذا النص أعلاه يدل دلالة واضحة على أن أولى الأولويات لدى الحكم هي استمالة البربر وتكبيهم بسلاسل الإحسان إليهم.

وبعد انتهاء المعركة التي أحرز فيها غالب النصر انقادت جموع البربر إلى دعوة المروانية وأجازهم إلى قرطبة ^{□□} ليضافوا إلى من سبقهم من البربر حيث يقول ابن حيان: "فتقبلهم معرضا عن نحلتهم على بصيرة مسمحة، واكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاث البربرية الرجال: رجال بني حسن ورجال ابني الأندلس، ورجال البرازلة عسكر ضخم يقاربون السبعمئة فارس" ^{لج}.

ونال الحسن بن كنون صحبة رجاله خطوة كبيرة لدى الحكم المستنصر وأوسع لهم في التكرمة و العطاء و اسكن الحسن بجواره إلى أن ساءت العلاقة بينهما و أجلاه عن الأندلس و أورد ابن الخطيب ما نصه: " و كان دخول العلويين صحبة غالب إلى قرطبة أول المحرم مفتح سنة أربع و ستين و المائة و عفا عنهم الحكم ووفى للحسن بعهد و أوسع له و لرجاله في العطاء و كانوا سبعمائة من الشجعان و استمرسكتاه في جوار الحكم و تحت بره إلى سنة خمس و ستين و ثلاثمائة ثم ساء ما بين الحسن بن كنون و بين الحكم المستنصر. □ تر

ولم يقتصر الحكم المستنصر على استخدام هؤلاء البربر، وتفريغ العدو المغربية من هؤلاء الأبطال، بل فتح المجال لهم ليبلغوا أعلى المراتب في صفوف جيشه بعد أن تخلى عن نظراته السلبية تجاههم، ونلاحظ ذلك جليا في النص الذي أورده ابن حيان حيث يقول: "...فيهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر الرئاسة جميعهم من البربر الذي طال مقت السلطان لهم وزهده فيهم" بر تر.

لقد كانت سياسة الحكم في اصطناع البربر نابعة من قوة هذه العناصر وحسن بلائها في الحروب، وبخاصة عندما شهد ثباتهم في لجج الحرب الأخيرة مع ابن كنون.

وكانت المؤهلات الحربية التي عرف بها البربر من شجاعة وفروسية وإقدام تر تر من الشروط التي يتطلبها الجيش الأندلسي على عهد الحكم حيث يحدد ابن حيان هذه الخصال متحدثا عن موقف الحكم: "فمنحهم الله قبوله وحسن عنده زيمهم واستنبل تخفيفهم في مراكبهم وانكماشهم في ثقلهم ورأى أن أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم" بر تر وبذلك فقد أضاف الحكم دما جديدا لجيش الخلافة الذي -حسب ظني - لاحظ المستنصر شغورا حرص على ملئه بهذه الفلول من البربر.

لقد أدرك الحكم ببعد نظره أن جيش الأندلس الذي أنشأه والده وخاض به حروبه ضد المناوئين في شتى أنحاء الأندلس، واخمد به الفتن والقتال التي كادت أن تعصف بالخلافة الأموية - أصبح في حاجة إلى دم جديد وتركيبة بشرية جديدة تعيد إليه حيويته ومراده، فكان الخزان البشري الأجدر بهذا المشروع هو خزان العدو المغربية التي كانت تفرز رجالات الحرب من رحم المواجهات سواء بين القوى البربرية نفسها أو مع جيش الخلافة.

وظل الحكم محبورا بهذه الفئة من جند البربر، لا يفتأ يشيد بها حتى في ساعة مرضه الذي مات فيه، حين كان يتمتع نظره باستعراضهم أمامه: "حتى لظل أيام علته يشرف عليهم من قصبه دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام إعطائهم، يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب شاخصا إليهم معجبا بهم يقول لمن حوله انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر تر بقوله:

**فكأنما ولدت قياما تحتهم
وكأنهم ولدوا على صهواتها**

ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم □ تر.

وقد أدى اضطراب حيل الأمن في المغرب الإسلامي في عهد هذا الخليفة الأموي دفع الكثير من الأسر البربرية إلى الهجرة نحو الأندلس خاصة بعد تجنيده لفرسان البربر ولاحسان إليهم وتقريبهم واستقدم من المغرب بني برزال Les Birzalides وفرقة من بني دمر BANU dammar وبعض العناصر الاباضية ل تر متخليا عن التزاماته في عدم السماح بدخول ارض الأندلس لنحل الدينية على غيرالمذهب السني.كل ذلك من اجل تفويت الفرصة على انضواء القبائل المغربية تحت الفاطميين.

واستنادا لهذه الوقائع فإنه يمكن اعتبار عهد الحكم هو بداية لسياسة الاعتماد على البربر في تشكيل الجيش الأموي حيث أصبحت صفة البربرية بادية على الجيش الأموي عندما انبث في هيكلته العامة قادة بارزون كان لهم قصب السبق في العديد من الوقائع التي سوف تشهدا الأندلس في عهد الدولة العامرية أو في عهد الفتنة التي أعقبتها كما سوف أبين ذلك بشيء من التفصيل.

♦ البربر على عهد المنصور ابن أبي عامر:

لما تولى الحكم المستنصر 366هـ/976م خلفه ابنه هشام المؤيد ليكون الخليفة الثالث في مسلسل الخلفاء الأمويين بالأندلس ونظرا لحدائثه سنة لم يستطع أن يسوس شؤون الدولة ويولي كبير عناية لتأمين الثغور الشمالية مما زاد في أطماع الروم وشنوا الغارات حتى شكا المسلمون للخليفة استفزازات الروم وتطاولهم على ممتلكاتهم مما أثار حفيظة المنصور بن أبي عامر الذي ظل يلح على توليه أمر الجيش ومقارعة الغزاة. وكان في مقدمة المنافسين له جعفر بن عثمان المصحفي - الذي سبقت الإشارة إليه - حيث استغل عزل الخليفة له يوم الاثنين 13 شعبان 367/978م واعتقاله.

حيث تبرز مع هذا الخليفة الحدث، شخصية المنصور ابن أبي عامر الذي تولى الحجابة[□] الذي يعتبر أعظم شخصية سياسية وعسكرية عرفتها الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي - وهو من الشخصيات التي صنعتها الظروف السياسية وتألفت بها إلى أعلى مناصب الدولة، فهو بالرغم من انتمائه إلى بيت متواضع فقد تمكن من الاستئثار بالحكم طوال عهد هشام بن الحكم المستنصر، واستطاع بدهائه أن يتخلص من منافسيه بشتى الطرق والمكائد - وهو من اليمينية حيث دخل جده عبد الملك مع طالعة طارق بن زياد إلى الأندلس، ولد بقرية تركش ثم رحل إلى قرطبة وفيها تلقى تعليمه - ثم فتح له مكتبا قرب باب القصر، يكتب للناس رسائلهم ومرافعاتهم للسلطان. وسمح له عمله هذا بالاحتكاك مع خدام القصر - ويوم احتاجت السيدة صبيح من يكتب عنها دلها عليه احد المعجبين به ومن كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فلما استعملته واطمأنت إليه نبهت إليه الحكم المستنصر الذي ولاه عدة مناصب اظهر فيها نجابة واستحقاق إلى أن عينه الحكم قبل وفاته ووزيرا لابنه هشام حيث قام المنصور بدور فعال في تنصيب هشام. وذاع صيته بين الرعية بعد أن تصدى لتحرشات الأسبان في الشمال ويلحق الهزيمة لجيوشهم.[□]

واستطاع أن يشق طريقه كقائد عسكري وسياسي بإرادة قوية منتهزا في ذلك الفرص المتاحة لتقوية نفوذه على حساب رجال الدولة واستطاع بدهائه أن يمكر بهم وأن يضرب بعضهم ببعض ومن أجل استكمال هذا المشروع عمد إلى إصلاح الجيش فاسحا المجال للعناصر البربرية^{لج}.

ليس هذا فحسب بل جعله قطب رحى لهذه الإصلاحات، لما تميز به البربر من خبرة قتالية، ومراس شديد، والتفاني في الانقياد والتحمل[□] وهو ما يؤكد ابن حيان: "وأسرع موت الحكم على تفيئة ذلك فأعقبهم عاقب جعفر بن عثمان في تدبير سلطان هشام الوالي بعده محمد بن أبي عامر خيره فاستظهر بهم على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم على طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاص بهم الدياجير في حياته"^{لج}.

تطلبت هذه الإصلاحات استئصال الأحقاد والضغائن من صفوف جيشه البربري المكون من مختلف القبائل المغربية، وفي مقدمتها القبيلتان الكبيرتان (زناتة وصنهاجة) اللتان دارت بين أسلافهم حروب طاحنة جندلت فيها آلاف الرؤوس ومنها رأس زيري بن مناد، كما سآبين ذلك لاحقا. فتمكن المنصور أن يجمعهم في جبهة واحدة ويقف في وجه أعدائه في الداخل والخارج وهو ما أورده ابن خلدون "ولما خلا الجو من أولياء الخلافة

والمرشعين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة ^{٢٠٠}.

ويستخلص من النص الذي أورده ابن خلدون أن المنصور ابن أبي عامر فتح الباب على مصراعيه لمختلف القبائل البربرية، لا يفتأ يستغل كل فرصة لاستقطابهم، حيث اتفق أن تحرك في هذه الفترة نائب الفواطم على إفريقية، بلكين بن زييري الصنهاجي في حملته التي أجهز بها على المغرب الأقصى، وأجفلت قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبتة قاعدة الخلافة الأموية في المغرب ^{٢٠١}. فاستغل المنصور هذه الحادثة وبعث إلى رجال زناتة يدعوهم إلى القدوم إليه وكان أعوانه قد أشاروا عليه بذلك حين قالوا له: "قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم فأرسل إليهم يأتوك سراعاً فيجد إحسانك إليهم مكاناً" ^{٢٠٢}.

إلا أن المنصور بن أبي عامر كان أعرف الناس بالبربر يعرف خصال الشراة والطمع فيهم فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذي أولوه إياه ^{٢٠٣}.

وظل يستكثر ويستزيد من عناصرهم ويزرعهم في صفوف جيشه بانتظام ليكون بهم قاعدة صلبة لمواجهة أعدائه ويحدد الصفدي عدد المجندين من البربر في جيشه بأربعة آلاف ومائتي فارس ^{٢٠٤}، أما ابن الخطيب فيحدد عددهم بخمسة آلاف: ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور بن أبي عامر ^{٢٠٥}.

وكان الذي شجع المنصور بعد مستشاريه معرفته بطبائع البربر التي لم تكن غريبة عنه فقد سبق أن عاش في بلادهم وبين قبائلهم عدة أعوام في عهد الحكم المستنصر.

وفوق ذلك هناك نص في غاية الأهمية يعضد ما أورده ابن خلدون في النص الذي سبقت الإشارة إليه حول اعتماد المنصور على هذه الطائفة البربرية من العدة المغربية وهو ما يؤكد ابن الخطيب بقوله "فاستظهر بفرسان الهبياء وأبطال الكريهة وأعلام السمرة من فرسان الغرب وزناتة الواردين على بابها في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم فارتاش منهم بأجنحة وافرة لم يستظهر قبله ملك بمثلها ومغراوة وأزداجة وزناتة وصنهاجة" ^{٢٠٦}.

ويفهم من النص أعلاه، أن المنصور بفرط ذكائه استطاع أن يستثمر الخلافات بين هذه القبائل، لتجنيد ما أمكن من أبطالهم وأفذاهم في صفوف جيشه.

وبغية الهيمنة والتسلط عمد المنصور إلى سياسة التفرقة والتنوع العرقي حتى أصبح أجناده قبائل مختلفة، وأجزاء ممزقة لا يربط بينها سوى الخضوع للسلطة المركزية التي أصبحت بيد الحاجب المنصور، وكان الهدف من هذه السياسة هو إضعاف الروابط القبلية للعناصر العربية الأندلسية في الجيش. وفي المقابل قرب المنصور البربر وصاروا من حاشيته ويطانته، وهم أظهر الجند عنده و أعلاهم مرتبة ^{٢٠٧}. وتحولوا بذلك إلى أداة طبيعة بين يديه يضرب بها كل ناعق.

وبهذه السياسة المنتهجة من قبل المنصور يكون قد لامس هدفه المتوخى ألا وهو إبعاد الارستقراطية العربية الأندلسية من الهيكل العامة للجيش الأندلسي ^{٢٠٨} وهو ما يشير إليه ابن خلدون: "وقدم رجال البرابرة وزناتة، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر" ^{٢٠٩}.

وُيستخلص من كلام ابن خلدون أن تقديم المنصور لهؤلاء البربر وإظهارهم على حساب العناصر العربية لم يكن حبا في البربر بقدر ما هو تقوية الفرصة على الأندلسيين وقطع الطريق أمامهم نحو السلطة خاصة وأن الظرف كان مناسباً لأن تظهر فيه شخصية عربية من السلالة الأموية لها من القدرات ما تستطيع أن تملأ هذا الشغور في السلطة وتزيح الأسرة العامرية.

لذلك راح المنصور بن أبي عامر يضرب على هذا الوتر الحساس، ويجرد هؤلاء الزعماء من معظم القوى التي كانت بين أيديهم، ويجعلها تحت السلطة المركزية التي أصبحت بين يدي الخليفة^{٢٥٥} ويفعل هذا التغيير الذي تبناه المنصور في نظام الجند زالت العصبية القبلية بين أفراد الجيش، وربما زالت تلك الأحقاد التي كانت بين الطوائف البربرية نفسها.

لقد سمحت هذه السياسة بتجمع العناصر البربرية في قطاع حساس، ومن ثم الإحتكاك بالشرائح المختلفة للمجتمع الأندلسي. وذلك أن تنظيمات المنصور استندت على جعل القوات المسلحة وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادة عليا وإلغاء النظام القديم الذي يقوم على أساس قبلي وعنصري، ولا شك أن الإنتصارات المتتالية التي حققها المنصور، وحسن بلاء البربر فيها، كانت تزيد من مكانتها في المجتمع الأندلسي فترسخت بذلك جدوى هذه الإصلاحات التي رفع لواءها المنصور بن أبي عامر.

إلا أن هناك من يرى أن هذا التنظيم الجديد لم يجلب سوى النتائج السلبية للمجتمع الأندلسي حيث يورد لنا أبو بكر الطرطوشي نصاً في غاية الأهمية حيث يقول: "وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم انتقاصاً لما كانت الأرض مقطعة (مملوكة) في أيدي الأجناد فكانوا يستغلونها فيرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الأرض عامرة ويقولون ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في الضعف والأموال وافرة والأجناد متوافرة والكرع (الخيل) والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن عامر فرد عطايا الجند مشاهرة يقبض الأموال على النطأ، وقدم على الأرض جباة يجيئونها فأكلوا الرعايا فاجتاحوا أموالهم واستضعفهم فتهافت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجباة المرتفعة إلى السلطان وضعت الأجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منهم"^{٢٥٦}.

ويستنتج من هذا النص أن ترددي الأوضاع الاقتصادية في أواخر عهد المنصور مردها إلى انشغال الأجناد من قواته بالمرابطة في الثغور وخوض غمار الحروب. فحل محلهم جباة استغلوا هؤلاء الفلاحين وأرهقوهم.

إلا أنني أرى أن الأمر على النقيض من ذلك، حيث أن الإصلاحات والتغييرات العددية والنمطية التي أجراها المنصور على الهيكلة العامة وإعادة صياغة البنية القاعدية للجيش قد أعادت للأندلس هيبتها بفعل المدافعة في الثغور الشمالية التي كانت تنتهي بانتصار الجيش، واحتل بذلك مكانة بارزة كقطاع حساس، وعلت مكانة المنصور ابن أبي عامر باعتباره قائد هذا الجيش وحامي حمى الأندلس، ومع ذلك وبالرغم من وصول المنصور إلى تحقيق أهدافه إلا أنه ظل حريصاً على الحفاظ على هذا الخزان البشري الذي لا ينضب معينه.

فهو عندما استولت قواته على مدينة فاس نذب المنصور الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي^{٢٥٧} ومنحه سلطات واسعة في إدارة البلاد وأمره أن يعمل على استمالة قبائل البربر وأوصاه بمغراوة وعلى رأسهم زيري بن عطية لما قدموه من المساعدات للأمويين وإخلاصهم للدعوة الأموية في بلاد المغرب^{٢٥٨}.

وهكذا ومن خلال ما أوردته من النصوص يتضح جليا أن المنصور بن أبي عامر واعتمادا على هذه الفئة من البربر استطاع أن يقهر أعداءه في الداخل ويزيجهم عن مزاحمته، ويفرض نوعا من الاستقرار الداخلي الذي عرفته الأندلس خلال عهد عبد الرحمن الناصر ونجده الحكم المستنصر.

كما ظلت آلتة العسكرية متأهبة طوال فترة حكمه يقارع بها جيوش النصارى في معارك فاصلة لم يصب فيها بانهزام حيث يؤكد صاحب تاريخ الأندلس ما يلي: "وهي ست وخمسون غزوة لم يهزم قط في غزوة منها ولم يزل فيها ظافرا مؤيدا منصورا عند اسمه"^س.

وصاروا دروعا يحتمى بها عند الكريهة إذا حمي وطيسها حتى أن أهل الأندلس كانوا يحسدونهم على هذه المكانة التي حضوا لدى المنصور حيث يشير إلى ذلك ابن الأثير: "لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء -أي البربر - للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد"^س. وظل يستنز أعداءه في التخوم الشمالية وينزل بهم الهزائم تلو الهزائم ولا يترك لهم فرصة التوحد واستجماع قواهم وهو القائل:

رميت بنفسي هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم مخاطر
وما صاحبي إلا جناد مشيع واسمر خطي وبيض باثر
ومن شيمتي أني على كل طالب أجود بمال لا تقيه المحاذر
وإني لمقتاد الجيوش إلى الوغى أسود تلاقبها أسود خوادر^س

هذا وقد توغل جيشه في عمق الأراضي المسيحية حتى وصل في غزوته الثمانية والأربعين التي انطلقت في صائفة جمادى الآخرة عام 387هـ/997 إلى ليون وكنيسة القديس يعقوب (شانت ياقث) في أقصى الشمال الغربي لشبه جزيرة ايبيريا فهدمها ولم يبق إلا على قبر القديس.^س

لقد كانت حياة المنصور بن أبي عامر جهادا متواصلا، مما اثر في حياته الصعبة وبالرغم من اعتلال صحته استتفر جيشه للخروج إلى جليقية سنة 392هـ/1001م ولما اشتد به المرض وحال دون مواصلة الكفاح عاد أدراجه نحو الجنوب^س وفي الطريق صنع له جيشه سريرا من الخشب حملوه عليه مدة اربعة عشر يوما حتى بلغوا به مدينة سالم، واسلم روحه لربه في 27 رمضان 392هـ/1001م ووري التراب ونقش هذان البيتان على شاهد قبره.^س

أثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا ولا يحمي الثغور سواه

الهوامش:

- 1 - ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف - المقتبس في أخبار بلاد الأندلس - تحقيق صلاح الدين الهواري - المكتبة العصرية - ط1 - صيدا بيروت - 1426 هـ - 2006 م - ص148.
- 2 - عبد القادر بوباية - البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران 2001/2002م - ص115.

- 3 - ليفي بروفنسال - تاريخ إسبانيا الإسلامية - ترجمة إيميليو جارثيا جومث إلى الإسبانية وعبد الرؤوف اليمبي وعلي ابراهيم منوفي والسيد عبد الظاهر عبد الله، مراجعة صالح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، مدريد، ط2، 2000م - ص430.
- 4 - ابن حيان - المصدر السابق - ص148.
- 5 - ابن حيان - نفس المصدر - ص148.
- 6 - عبد القادر بوباية - نفس المرجع - ص120.
- 7 - ابن حيان - نفس المصدر - ص148.
- 8 - عثمان بن نصر: هو عثمان بن نصر بن عبد الله بن حميد بن تسلمة بن عباد بن يونس القيسي المصحفي المؤدب، من أهل قرطبة، كان ذا سمعة وعدالة، وهو والد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي توفي يوم الإثنين من ذي الحجة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وهو ابن اثنتين وستين سنة، ابن الفرضي أبو الوليد - تاريخ علماء الأندلس - تحقيق صلاح الدين الهواري - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 1426هـ/2006م - ص271.
- 9 - ابن الفرضي - نفسه - ص271/ ليفي بروفنسال - المرجع السابق - ص432-433.
- 10 - الحميدي أبو عبد الله - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس - تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت ط1 2004 ص134. ابن حيان - المقتبس - ج5 نشر بيدرو شلميطة المعهد الإسباني العربي للثقافة مدريد، كلية الآداب الرباط 1979 ص47 الطيبي بن عميرة - بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس - تحقيق صلاح الدين الهواري - المكتبة العصرية 2005 ص234.
- 11 - ابن حيان - المصدر السابق - ص18/ ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق ليفي بروفنسال وج س كولان - دار الثقافة بيروت - ط3، 1981م - ج2، ص342.
- 12 - ابن حيان - المصدر السابق - ص22.
- 13 - رجالهم جمع الرعييل الجماعة القليلة من الرجال أو الخيل أو التي تتقدم غيرها والكراديس الطائفة العظيمة من الخيل والجيش - ابن منظور أبو الفضل - لسان العرب - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت - 1388هـ - 1978م - ج11 ص286.
- 14 - ابن حيان، المصدر السابق - ص149.
- 15 - عبد العزيز فيلالي - العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب - دار هوم، الجزائر، 2007م - ص214.
- 16 - أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية - دت - ص230.
- 17 - بلكين بن زيري بن مناد المسمى يوسف المكنى بأبي الفتوح والملقب بسيف العزيز بالله وهو من هزم زناته، واستأصل شأفته وفتح معاقلهم ووكل من قبل أبيه زيري ابن مناد بتأسيس مدن، الجزائر ومليالة، والمدية - ابن الخطيب لسان الدين - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - تحقيق أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني - دار الكتاب دار البيضاء 1964م، ص221/ الهادي روجي إدريس - الدولة الصنهاجية - ترجمة حمادي الساحلي - دار الغرب الإسلامي بيروت، 1992م، ج1، ص60.
- 18 - ابن أبي زرع الفاسي - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - دار المصور للطباعة، الرباط 1972م - ص91.

- 19 - ابن الخطيب - نفسه - ص221.
- 20 - ابن حيان - المصدر السابق - ص57/ ابن عذاري - المصدر السابق - ج2 ص364/ الناصري أبو العباس - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري - مطبعة دار الكتاب البيضاء، 1954م - ج1 ص200.
- 21 - إسماعيل العربي - دولة الأدارسة - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1983م - ص183.
- 22 - تطوان: قاعدة بني سكين فيها قصبة للأول، وبها مياه كثيرة سائحة، أقيمت فيها الأرحاء وهي على بعد نحو 18 ميل من المضيق و6 أميال من البحر وقد فتحها المسلمون عندما أخذوا مدينة سبتة من يد القوط. أبو عبيد البكري - المسالك والممالك- تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري - الدار العربية للكتاب - تونس، ج2، ص784/حسن الوزان المعروف بليون الإفريقي - وصف إفريقيا - ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1983م، ج1، ص318.
- 23 - ابن حيان - المصدر السابق - ص58.
- 24 - نفسه - ص66.
- 25 - نفسه - ص71/ مؤلف مجهول - مفاخر البربر - تحقيق بوباية عبد القادر - دار أبي رقرق - الرباط 2005م - ص98/ الاستقصا - المصدر السابق - ص200/ ابن أبي زرع - المصدر السابق - ص93.
- 26 - ابن حيان - نفسه - ص149.
- 27 - نفسه - ص149.
- 28 - ابن أبي زرع - المصدر السابق - ص112/ الناصري - المصدر السابق - ج1 ص201.
- 29 - السيد عبد العزيز سالم - تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - 1985م - ص389.
- 30 - ابن حيان - المصدر السابق - ص150.
- 31 ابن الخطيب لسان الدين - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني - دار الكتاب البيضاء 1964 ص222.
- 32 - نفسه - ص150.
- 33 - عبد القادر بوباية - المرجع السابق - ص192.
- 34 - ابن حيان - المصدر السابق - ص150.
- 35 - الشاعر أبو الطيب المتنبى المتوفى سنة 354هـ/950م قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ومطلعها -
- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| سرب محاسنه حرمت ذواتها | داني الصفات يفيد موصوفاتها |
| أوفى فكنت اذا رميت بمقلتي | بشرا رأيت أوق من عبراتها |
| يستاق عيسهم أنني خلفها | تتوهم الزفرات زجر حرراتها |
| وكأنها شجر بدت لُكنها | شجر جنيت الموت من عراتها |
| لا سرت ابل لو اني فوقها | لمحت حرارة مدمعي سماتها |
- أبو الطيب المتنبى - ديوان المتنبى - المكتبة الثقافية - بيروت - دت - ص186.
- 36 - ابن حيان - المصدر السابق - ص150.
- 37 ارزقي فراد المرجع السابق ص14.

- 38 - مجهول - تاريخ الأندلس - دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية - دار الكتب العلمية - بيروت - 1428هـ/2007م - ص216.
- 39 المقري نفع الطيب - ج1 ص 399 - فراد محمد ازقي القوى الغربية في الأندلس ص16 الفتح بن فاقان
- 40 - محمد سهيل طقوش - تاريخ المسلمين في الأندلس - دار النفاثس - بيروت - 2005 - ص 363.
- 41 - أحمد مختار العبادي - في التاريخ العباسي والأندلسي - دار النهضة العربية - بيروت - 1972م - ص439.
- 42 - ابن حيان - المصدر السابق - ص151.
- 43 - ابن خلدون - المصدر السابق - ج4 ص177.
- 44 - مجهول - مفاخر البربر - ص106.
- 45 - ابن عذاري - المصدر السابق - ج2 ص293، 294.
- 46 - دوزي راينهارت - المسلمون في الأندلس - ترجمة حسن حبشي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1994م - ج2 ص113.
- 47 - الصفدي خليل ابن أيبك - الوافي بالوفيات - نشر هلموت ريتز - دار النشر فرانس ستاين - فيسبان - 1962 - ص87.
- 48 - ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله - أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام - تحقيق إ. ليفي بروفنسال - دار المكشوف - بيروت - ط2 - 1956م - ص102.
- 49 - ابن الخطيب - المصدر السابق - ص66.
- 50 - ابن عذاري - المصدر السابق - ج2 ص279.
- 51 - ارزقي محمد فراد - المرجع السابق - ص20.
- 52 - ابن خلدون - المصدر السابق - ج4 ص177.
- 53 - دوزي رينهارت - المرجع السابق - ج2 ص111.
- 54 - الطرطوشي أبو بكر - سراج الملوك - تحقيق محمد فتحي أبو بكر - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - 1414- 1994 - ج2 ص498- 499.
- 55 - عبد الودود السلمي: الحسن بن أحمد بن عبد الودود من خاصة المنصور ولاء المغرب بعد الاستيلاء على مدينة فاس سنة 376هـ/986م وخوله صلاحيات واسعة وقام بضبط البلد وهاب البرابرة بأسه وامتحنه المنصور بعد سعاية قام بها حاسدوه فوجده من المخلصين له وازدادت ثقته عنده، مجهول - مفاخر البربر - ص111.
- 56 - ابن خلدون - المصدر السابق - ج7 ص40/ مجهول - نفسه - ص111.
- 57 - مجهول - تاريخ الأندلس - ص226.
- 58 - ابن الأثير عز الدين أبي الحسن - الكامل في التاريخ - دار صادر - بيروت - 1385هـ/1965م - ج9 ص33.
- 59 - مجهول - تاريخ الأندلس - ص226.
- 60 - ابن عذاري المبيان المغرب ج2 ص440- 443.
- 61 - المقري أبي العباس نفع الطيب من عنصر الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لأنه الدين ابن الخطيب - تحقيق إحسان عباس دار حماد بيروت 1968 ج1 ص 597.
- 62 - ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج2 ص 440- 443.